

أسرار العبادات من منظور

السيد ابن طاووس

*The Secrets of Worship from Sayyid Ibn
Tawoos Perspective*

د. محمد هادي فلاح^(١)

ترجمة: أيوب الفاضلي

راجعته وصححه وعلّق عليه: أ.د. عليّ الأعرجي

مركز تراث الحلة

Dr. Mohamed Hadi Falah

Translated by: Ayoub Al-Fadhli

Reviewed, Corrected and Commented by:

Prof. Dr. Ali Al-Araji

Hilla Heritage Center

ملخص البحث

للعبادات أسرار عظيمة، ويسعى كلُّ عالمٍ مشغولٍ بالعرفان، والكتب العرفانيَّة أن يتناول الأسرار الما ورائية للعبادات، كأن يكتب في أسرار الصلاة، وأسرار الصيام، وأسرار العبادات بصورة عامَّة، وقد لاحظ السيد ابن طاووس وجود البُعد العرفانيِّ في عبادات وأدعية آل الله ﷺ؛ فسعى ﷺ في بثِّها في مصنَّفاته، وكذا سارَ على خطاه من جاء من بعده من العُرفاء.

Abstract

The worshipping has great secrets, every scientist worked in "Mysticism", and the books of mysticism to seek and deal with the Theology, like writing about the prayer secrets, secrets of fasting and secrets of worshipping in general, Iben Tawoos noticed that the existence of the mysticism in the prophet household(A'al Al-Bait) in their worshipping and prayers (PBUT); Ibn Tawoos sought to broadcast it in his works, as well as those who came after him and follow his footsteps from the mystical scientists.

تقديم

تُداولُ مسألة (أسرار العبادات) بين العُرفاء بنحوٍ واضحٍ، بوصفها من مسائل علم العرفان العمليّ.

وتُعَدُّ هذه المسألة من شؤون العرفان، وخصائص العُرفاء، كما هو مفصّل في آثارهم^(١).

وإن شاء الله تعالى نتناول في هذا البحث الجنبه الباطنيّة للعبادات، والأعمال القلبيّة في المنظومة الفكريّة للسيّد ابن طاووس.

يعتقد العُرفاء أنّ للدين ظاهراً، ويتمثّل بالأحكام، ويطلقون عليه الشريعة، وله ما وراء هذا الظاهر باطنًا، وهو حقيقته ويسمونها الطريفة^(٢).

ويؤمن العُرفاء أنّ مغزى الأحكام ما وراءها، «وإليه ﷻ الاختيار فيما تُعبّد به من العبادات»^(٤).

ومن هنا عنى العُرفاء بالأسرار الباطنيّة للعبادات، ولهم في ذلك مؤلّفات.

وفي هذا السياق يقول السيّد: «واعلم أيّها الأخ أيّدك الله، وإيانا بروح منه أنّك إذا نظرت أسرار النواميس الإلهيّة، وتأملت السنن الشرعيّة، وتبيّنت أغراض واضعي النواميس كان هذا الذي ذكرت لك»^(٥).

كما أشار علماء الدين الكبار إلى مسألة أسرار الدُعاء، والعبادة في مصنفاتهم، ولهم

بيانات متعدّدة في هذا المجال.

والباعثُ لهم على ذلك أنّ كثيراً من تعاليم الشريعة، وبرامجها بالمعنى العام لها جنبَةٌ باطنيةٌ عباديةٌ، تكمن وراء صورتها الظاهرية.

وتأثر ابن طاووس بالعرفاء في هذه المسألة، وهذا يظهرُ عبرَ ما كتبه من الأسرار^(٦) في الأدعية، والعبادات، ومثال على ذلك ما ذكره في أسرار الأذان والإقامة^(٧)، والرُكوع^(٨)، والسُجود^(٩)، وغير ذلك^(١٠).

وعرض ابن طاووس في كتابه (غيث سلطان الوري لسكان الثرى)^(١١) لطائف من شأنها التأمل في ما يخصُّ الصلاة، وما ألح إليه من معانٍ، فيها قُرّة عين للعارفين^(١٢).

ونُطالع في هذا الكتاب أيضاً المعاني الباطنية، والأسرار للأذان، وهو قريبٌ لما ذكره في (مفتاح الفلاح)؛ فراجع^(١٣).

كما ذكر في (كشف المحجّة لثمرة المهجة) تحت عنوان (العبادات كلمات نافعات لأهل السعادات)^(١٤) - هي: الصلّاة، والصيام، والزكاة، والحجّ، والجهاد - طرفاً من أسرارها لولده^(١٥).

ووضّح لابنه فيما وضّحه عليه العمقَ القلبيّ، والعقليّ للصيام، وما له من أسرار باطنية^(١٦).

واقترفى ابن طاووس طريقة العرفاء في الفلسفة الباطنية في نطاق العبادات^(١٧)، وفسّر ذلك على نهجهم.

كما لاحظ ابن طاووس وجود البُعدِ العرفانيّ في عبادات وأدعية آل الله ﷺ؛ فسعى ﷺ في بثّها في مصنّفاته، وكذا سارَ على خطاه من جاء من بعده من العرفاء^(١٨).

ويمكنُ عدُّ أهمِّ أعمالِ ابنِ طاووسٍ العرفانيَّةِ ما صنَّفه من كتابٍ في هذا المضمار، وهو (أسرار الصَّلَاةِ وأنوار الدَّعوات) (١٩)؛ إذ كتبه بأسلوبٍ خاصٍّ، وطريقةٍ مخصوصةٍ. ومن الواضح أنَّ النُّصوص العباديَّة هي عاملٌ أساسٌ، وباعتُّ ضروريٌّ لتغيير ما تلوَّث من الباطن، وكان ﷺ بشكلٍ عامٍّ يتعاطى مع كتاب (مصباح الشريعة، ومفتاح الحقيقة) بنحوٍ جليٍّ.

ويُنقلُ عنه ﷺ حديثًا في هذا المضمار أنَّ الكتاب المتقدِّم «عن الإمام الصادق عليه السلام؛ فإنَّه كتابٌ لطيفٌ، شريفٌ في التعريف بالتَّسليك إلى الله ﷻ، والإقبال عليه، والظَّفَر بالأَسرار التي اشتملتُ عليه» (٢٠).

وها نحنُ نعرِّضُ هنا نظرَ ابنِ طاووسٍ ﷺ لأَسرار العبادات عبرَ عنوانات، وهي:

١. مكانةُ أسرار العبادات:

ولجَّ ابنُ طاووسٍ لما وراء الظَّاهر، وأعرَب عن وجودِ أسرارٍ للعبادة، وبعضُ منها كُشف من زاويةٍ خاصَّةٍ.

وليُعلم أنَّ للعبادة والأدعية الدِّينيَّة حقائقٌ متعددة؛ فهي معبِّرةٌ من قلب، وروح النبيِّ، وأهل بيته عليه السلام، ومنه يظهر ما فيها من أسرارٍ تلوِّح ما بين السُّطور للمتتبع؛ فليُتفطن.

وينبه السيِّد للحصول على تلك اللئالي، والأسرار يُفترض بالطَّالب لها من مقدِّماتٍ، وإلاَّ فهي للخواصِّ، وفي هذا المضمار يقول:

«إنَّ أسرار خواصِّ الله ﷻ ونوابه ما يتطلَّع كلُّ أحدٍ على حقيقة معناه» (٢١).

ومن هنا لا يمكن أن يكون كلُّ شخصٍ مستودعًا للأسرار إلاَّ المطلَّع على الغايات،

وبتعبير ابن طاووس:

«فإنَّ أسرار العبادات لا يعلمها جميعًا [جميعها] إلاَّ المطلَّع على الغايات [الغائبات]»^(٢٢)، وإليه عليه السلام الاختيار فيما تعبَّد به من العبادات»^(٢٣).

وفي نصٍّ آخر:

«أمَّا تعيين وجه اختيار الله عليه السلام من العبد أن تكونَ خدمته له بجنسٍ من الطَّاعات، وعلى وجهٍ متعيَّنٍ في بعض الأوقات؛ فهذا طريقةٌ عن العالم بالغائبات على لسان رسله «صلى الله على نبيِّنا وآله وعليهم السلام»، وعلى لسان ملائكته، ومن شاء من خاصَّته عليهم أفضل الصَّلوات»^(٢٤).

كما حظيت مسألة أسرار العبادات لدى العرفاء بأهميةٍ خاصَّةٍ؛ ففي نظرهم أدعيَّة، وعبادات الأئمة عليهم السلام مشارٌ للحيرة، والتعجُّب؛ لها فيها من لطائف المعارف الحقَّة الإلهيَّة^(٢٥).

وفي هذا المضمار إنَّ كشف الأسرار مبدأ المعارف، وتتجلَّى أعظم وأدقُّ الأسرار ما كان بين الحقِّ المطلق، وأحبائه، وأصفيائه عليهم السلام، وأيضا هذه الأسرار تنفسح لإطلالة على المعرفة الغيبية^(٢٦).

وأتبع السيّد العارف الخميني عليه السلام أثر ابن طاووس في كيفة صدور الأدعية من الأولياء المخلصين، يقول السيّد الخميني في هذا الموضوع:

«هناك من أفنى نفسه في الحقِّ تعالى، ولم يرَ سواه؛ صدرت هذه الأدعية الكريمة في حال الصَّحوِّ قبل المحوِّ، أو بعد المحوِّ، والفناء في ذاته المقدَّسة، ولا تمتدُّ أيدينا إلى غير أولياء الله الخُلص»^(٢٧).

ويعدُّ السيّد الخمينيُّ أدعية المعصومين عليه السلام باباً للمعارف، يقول في هذا الأمر:
«ينبغي نيل المعارف من الأدعية، ولا يمكن نيلها عبر الأخبار التي كان المخاطبُ
بها عموم الناس.

ويُفترض تعلّم المعارف من الأدعية؛ لأنَّ طرفَ الخطاب فيها الحقُّ سبحانه؛ ولذا
نرى جُمَلَ الفصوص مع معنى الأدعية مطابقاً...»^(٢٨).
وفي موضعٍ آخر يقول:

«ونفخرُ أن الأئمةَ المعصومين عليهم السلام بدءاً بعليِّ ابن أبي طالبٍ وانتهاءً بمُنقذ البشرية،
حضرة المهديِّ صاحب الزّمان، الحسيِّ الناظر على الأمور بقدرته الله القادر «عليهم
آلاف التحيات والسلام» هم أئمّتنا، ونفخرُ أن الأدعية الخالقة التي تُسمّى بالقرآن
«الصّاعد»، هي من أئمّتنا المعصومين، نفخرُ بمناجاة أئمّتنا الشّعبانية، ودعاء الحسين بن
علي عليه السلام في عرفة، والصّحيفة السّجادية التي هي زبور آل محمّد، والصّحيفة الفاطمية
هي الكتاب الملهّم من قبل الله تعالى للزّهراء المرضية عليهن السلام»^(٢٩).

ومّا ينبغي التّنبية له أن أساس نظريّة العرفاء في أسرار العبادات هو الأدعية،
والعبادات، والإشارات للنبيِّ، وأهل بيته عليهم السلام.

ويعتقد ابن طاووس أن الله تعالى يزيح لأوليائه السّتار عن الأسرار بمنه وفضله،
ويشهد على هذا النّقل، والعقل^(٣٠)، وهو لا يُعدُّ نحواً من الوحي، يقول ابن طاووس:
«أقول: واعلم أن إلقاء هذه الأسرار في السنّة إلى وليِّ الأمر ما هو من الوحي؛ لأنَّ
الوحي انقطع بوفاة النبيِّ صلى الله عليه وآله؛ وإنّما هو بوجه من وجوه التعريف...»^(٣١).

وأهم النبيِّ الأعظم صلى الله عليه وآله الأئمة الأطهار، وخزائن أسرارهِ الرّبّانية.

«أنه صدر عن النبي الأعظم ﷺ المؤيد بالأطاف، والوحي، بالعناية الإلهية، والاطلاع على الأسرار الربانية، والمصالح الدنيوية والدنيوية» (٣٢).
وقال في موضع آخر:

«واعلم أن في هذه القنوات إشاراتٍ منهم ﷺ إلى ما كانت حياتهم عليه في تلك الأوقات، وإلى معرفتهم بما يتجدد بعدهم من تأخير دولتهم، وإظهار التألم من دفعهم من إمامتهم، وعن فرض طاعتهم، وفيها من الأسرار ما قد دلوا عليه كثيرًا من ذوي الأبصار» (٣٣).

ويعلق ابن طاووس عند حديثه عن دعاء الإمام الجواد عليه السلام؛ فيقول:
«إنه من أسرار الله عند خاصته» (٣٤).

ويرى ﷺ أن الباب للأسرار مؤصد، ولا يدخله إلا من اختاره الله تعالى، ويتم ذلك؛ إما عن طريق النبي ﷺ، أو الملائكة أو الأولياء عليهم السلام.

«... وأما تعيين وجه اختيار الله ﷻ من العبد أن تكون خدمته له بجنسٍ من الطاعات، وعلى وجه متعينٍ في بعض الأوقات؛ فهذا طريقة عن العالم بالغايبات على لسان رُسله «صلى الله على نبينا وآله وعليهم السلام»، وعلى لسان ملائكته، ومن شاء من خاصته، عليهم أفضل الصلوات» (٣٥).

ومذهب ابن طاووس في بيان أسرار العبادات، وصدور البرامج من العرفاء، وما يتعلق بذلك، له إشارة في ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام، قال ﷺ:

«الذي روينا عن سلفائنا الطاهرين العارفين بتأويل القرآن، وأسرار رب العالمين» (٣٦).

ويقول في أسرار الأذان والإقامة:

«هما مسنونان، وفيهما أسرار»^(٣٧).

وفي موضع آخر:

«وإذ قد ذكرنا بعض ما روينا من أسرار الأذان، والإقامة»^(٣٨).

ويلاحظ على مسلك ابن طاووس في بيان أسرار العبادات، والأدعية لم يتقوّل من عنديّاته، واستند في ما أورده على القرآن الكريم، والروايات والأدعية، وعبادة المعصومين عليهم السلام، ومنه نتجت البرامح العرفانيّة.

يقول ابن طاووس في هذا الصّد:

«لقد وجدت من دعوات النبي صلى الله عليه وآله، والأئمّة عليهم السلام في الاستخارات ما يفهم منه قوّة العناية منه صلى الله عليه وآله، ومنهم صلوات الله عليهم بها، وتعظيمهم لها حتّى لقد وجدت أنّها من جملة أسرار الله صلى الله عليه وآله التي أسرها إلى النبي صلى الله عليه وآله لئلاّ أسريّ به إلى السّماء، وأنّها من أهمّ المهامّ، ووجدت أنّ آخر مرسوم خرج عن مولانا المهديّ عليه السلام، وعلى آباءه الطاهرين دعاء الاستخارة، وهذا حجّة بالغة عند العارفين»^(٣٩).

٢. الشُّروط:

يشترط عليه السلام شرطين للإفصاح عن أسرار العبادات للآخرين:

الشَّرْطُ الأوَّلُ: يتعلّق بالمتكلّم، وهو أن يكون مأذوناً بذلك.

والشَّرْطُ الثَّانِي: يتعلّق بالسّامع، وهو أن يكون من أهل الاستقامة، والتّوفيق، وثمّة

وجود مصلحة لبيان الأسرار له.

وإن شاء الله سنبحث هنا الشَّرطين:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: الْإِذْنُ

يعتقدُ عليه السلام ما موجود من تشابه في اللفظ، والمعنى في بعض الأدعية يضمُّ في طيَّاته أسرارًا.

«وربَّما جاء في بعض الدَّعوات المذكورة مشابهة لفظ، أو معنى لأجل ما عرفته من الأسرار المذكورة التي يذكرها خواصُّه عنه عليه السلام، وبإذنه، وإذن رسوله صلى الله عليه وآله في زمانٍ دون زمان، ولإنسانٍ دون إنسانٍ»^(٤٠).

وأما ابنُ طاووسٍ في مصنَّفاتِه إلى أنَّ لديه إذنًا في بيان بعضِ الأسرار^(٤١)، وأشار لذلك عندما تحدَّث عن أسرار الصَّلَاة، والدُّعاء؛ فراجع^(٤٢).

وتعدُّ من المسائل المهمَّة في العرفان العلميِّ، والعمليِّ، والخطوة الأساس للسلوك، أخذُ الإذن من الله تعالى، أو بوساطة المرئيِّ؛ فهو يطلِّع على أحواله، ويتابع سلوك «المريد»، وحركاته، وسكناته؛ ولعلَّ ابن طاووسٍ في قوله «بعض ما فتح الله عليه السلام ممَّا أنشأته»^(٤٣)، يُشير لهذا المعنى المتقدِّم، وكان عليه السلام يعدُّ الاستخارة نحوًا من الإذن، وكثيرًا ما يعتمدُ عليها، ومعه فالإذن في نظره عليه السلام له أهميَّة خاصَّة.

الشَّرْطُ الثَّانِي: الْاسْتِقَامَةُ

لا ينبغي الإفصاح عن أسرار العبادة لأيِّ أحدٍ؛ وإنَّما تُعطى لأهل الاستقامة، «فلنذكر ما نريد ذكره ممَّا يحتاج إليه أهل الاستقامة»^(٤٤)؛ فيذكر بعض النُّكات للعرفاء حول الأذان والإقامة؛ فيقول:

«ويقول كلُّ كلمةٍ منها بالصدق وموافقة السريرة للعلائيَّة على صفة أهل الاستقامة»^(٤٥).

ويعتقد ابن طاووس أنه لا بد أن يكون المتحدث بالأسرار أن يلاحظ أهلية السامع، وجدارته، وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا؛ «فإن أدركتَ يا ولدي موافقةً توفيقك لكشف الأسرار عنك»^(٤٦).

واللافتُ للنظر أن السيّد مع كون السّامع مستحقًّا لتلقّي الأسرار إلاّ أنّه ﷺ يعلّق الإفصاح عنها بحسب المصلحة، يقول:

«نذكر بعضَها بحسبِ المصلحة»^(٤٧)، «أقول: ولعلّ هذه الرّواية تختصُّ بوقتِ دون وقتٍ، وعلى حالٍ دون حالٍ، ولا إنسانٍ دون إنسانٍ»^(٤٨).

ويعتقد ﷺ أيضًا أن تعليم الأديّة بمقدار الأفراد، وقابليّتهم^(٤٩).

مع أن ابن طاووس لم يُعرّف أهل الاستقامة بطريقة واضحة، ولكن يمكن أن نلمس الميزان، والمعيّار لهم من آثار الأئمّة عليهم السلام، يقول ﷺ في هذا السياق:

«ثمّ يسلك به سبيل معرفة النبوة والإمامة على قاعدة تعريف النبيّ، والأئمّة عليهم السلام، ومن سلك سبيلهم من أهل الاستقامة؛ فهذا كان كافيًا لمن يريد تحصيل السّلامة، وسعادة الدُّنيا، ويوم القيامة»^(٥٠).

ومّا ينبغي الالتفاتُ له أن الأشخاص الذين يمتلكون أسرار العبادة لا بدّ لهم من إذنٍ لنقلها للغير، ويفترض أن يكونوا من أهل الاستقامة والتّوفيق، وهناك مصلحةٌ من الأدلاء لهم بالأسرار، وإلاّ فلا يجوز التفوّه بها؛ فلا تغفل.

٣. سرُّ علاقة الزّمان في العبادات

بيّن ابن طاووس في ما كتبه أهميّة المناسبات الزّمانية في العبادات، ورمزيّتها، ومعه ستكون محوريّة هذه الفقرة العلاقات الزّمانية، وسرّها عند ابن طاووس.

لَمَّا كَانَ ﷺ مُلْتَفِتًا لِأَهْمِيَّةِ الزَّمَانِ فِي الْأَدْعِيَةِ، كَمَا وَرَدَ مِنْ أَسْرَارٍ فِي الرُّوَايَاتِ؛ فَكَانَتْ تَصَانِيفُهُ عَلَى هَذَا الضُّوءِ؛ فَزَاهَا مَقْسَمَةٌ عَلَى سَنَوِيَّةٍ، وَشَهْرِيَّةٍ، وَأَسْبُوعِيَّةٍ، وَيَوْمِيَّةٍ، «وَكَانُوا قَدَوَةٌ لِمَنْ اقْتَدَى بِآثَارِهِمْ، وَاهْتَدَى بِأَنْوَارِهِمْ»، وَمِنْ هُنَا اسْتَنْدَ ﷺ مِنْ أَنَّ هُنَاكَ عِلَاقَةٌ بَيْنَ الزَّمَانِ وَالْأَدْعِيَةِ بِسِيرَةِ الْمُعْصُومِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ:

«أَمَّا تَعْيِينُ وَجْهِ اخْتِيَارِ اللَّهِ ﷻ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ تَكُونَ خِدْمَتُهُ لَهُ بِجِنْسٍ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَعَلَى وَجْهِ مُتَعَيِّنٍ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ؛ فَهَذَا طَرِيقَةٌ عَنِ الْعَالَمِ بِالْغَائِبَاتِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ «صَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ»، وَعَلَى لِسَانِ مَلَائِكَتِهِ، وَمَنْ شَاءَ مِنْ خَاصَّتِهِ عَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ»^(٥١)، «إِنَّمَا نَذَكَرُهَا هُنَا رَوَايَةً تَتَضَمَّنُ سَبَبَ تَعْيِينِ أَوْقَاتِ الْفَرَائِضِ؛ لِئِنْ كَشَفَ بِذَلِكَ وَجْهَهُ وَسُرَّهُ»^(٥٢).

وَيُؤْمِنُ ﷺ مِنْ أَنَّ هُنَاكَ عِنَايَةً رَبَّانِيَّةً لِكُلِّ بَدَايَةِ شَهْرٍ؛ فَإِنَّهُ يَضْمُّ أَسْرَارًا، «وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِأَسْرَارٍ رَبَّانِيَّةٍ، وَأَنْوَارٍ مُحَمَّدِيَّةٍ، وَمَبَارِّعٍ عَلَوِيَّةٍ، مِنْهَا تَعْرِفُنَا بِأَوَائِلِ الشُّهُورِ»^(٥٣).

كَمَا أَكَّدَ السَّيِّدُ فِي كِتَابِيهِ (الإقبال)، و(فلاح السائل)، وَغَيْرِهِمَا أَهْمِيَّةَ عِلَاقَةِ الزَّمَانِ، وَأَسْرَارِ الْعِبَادَاتِ؛ وَلِذَا نَرَاهُ يَوْصِي لِمَنْ قَصِدَ السَّفَرَ «يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ لِنَهَارِهِ فِي أَسْفَارِهِ كِتَابَ الْأَسْرَارِ الْمُوَدَّعَةِ فِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ»^(٥٤).

وَيَعْتَقِدُ ﷺ أَنَّ لِلْعِبَادَاتِ مَنَاسِبَاتٍ يُرَاعَى حَالُ الْإِنْسَانِ فِيهَا، وَأَيْضًا يَلَاحِظُ بِهَا الزَّمَانَ؛ فَلَهُ سُرَّهُ وَرَمُزُهُ؛ «فَإِنَّ لِأَوْقَاتِ الْقُبُولِ أَسْرَارًا لِلَّهِ ﷻ مَا تُعْرِفُ إِلَّا بِالْمَنْقُولِ»^(٥٥)؛ فَلَا يُعْرِفُ أَسْرَارَ الزَّمَانِ إِلَّا عَنِ طَرِيقِ الْآيَةِ وَالرُّوَايَةِ، وَأَمَّا عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ حَسَنُ زَادَةَ الْأَمَلِيِّ مِنْ إِمْكَانِيَّةِ التَّعْرِفِ عَلَى بَعْضِ الْأَسْرَارِ عَنِ طَرِيقِ الْمُعْقُولِ يَحْصُلُ عَبْرَ شُعُورٍ، وَإِدْرَاكِ رَمَازِيٍّ لَهُ^(٥٦)؛ فَتَتَوَسَّعُ دَائِرَةُ الْمُرَاجِعِ فِي اسْتِلْهَامِ الْأَسْرَارِ إِلَى الْآيَةِ،

والزَّواية، والمعقول.

ويبيِّن ابن طاووسٍ طرفاً من أسرار الزَّمان؛ فيقول:

«اعلمْ رحمك الله أنَّ كلَّ وقتٍ اختاره [تختاره] الله ﷻ لدعوة عباده إلى حبه، وقُربه، وإسعاده، وإنجاده، وإرفاده؛ فإنَّ ذلك من أوقات إقبال العبد، وأعياده؛ حيثُ ارتضاه الله ﷻ الموقوف [للو فود] بشريفِ بابه، وشرفه بما لم يكنْ في حسابه»^(٥٧).

ويشير ﷺ إلى نماذج عدَّة تظهر فيها علاقة الزَّمان بأسرار العبادات مثل ليلة ٢٥ من ذي القعدة، وما فيها من أعمالٍ، وبرامج، «ودخول فيها فتحه الله ﷻ في تلك الليلة من الأنوار، والأسرار»^(٥٨).

وقال ﷺ:

«اعلمْ أنَّ أوقات العبادات، والمراد منها لله ﷻ في تلك الأوقات مرجعه إلى العالم بمصالح العباد، وما يكون أنفع لهم في الدُّنيا، والمعاد»^(٥٩).

وفي نصٍّ آخر:

«أقول: وينبغي أن يكون مع إذكار عقلك، وقلبك، ونفسك باطِّلاع الله ﷻ عليك في هذا شهر ذي الحجَّة الذي أنعم الله ﷻ به عليك، وجعله رسولاً يهدي ما فيه من الفضائل [الفضل] إليك على صفاتٍ من يتلقَى نعمته ﷻ بالتَّعظيم، والثَّناء الجسيم، ويتلقَى رسوله بالتَّكريم، والإقبال على شكر ما أهداه إليك من الفضل العظيم، وأشغل جميع جوارحك بما يختصُّ كلُّ منها من العبادات حتَّى تكون ذاكرةً لله ﷻ في ذلك العشر فعلاً، وقولاً في جميع التصرُّفات...»^(٦٠).

وفي موضعٍ آخر:

«... قد ذكرنا في عدّة مواقيتٍ معظّمتٍ ما يختتم زمان تلك الأوقات؛ فيعمل على ما ذكرناه، ونذكر هاهنا ما معناه أنّ كلّ وقتٍ اختصّ الله ﷻ بخدمته به، وجعله محلاً لبسط فراش رحمته، وإطلاق المواهب لأهل مسألته للابتداء لمن لم يسأله من خلقته؛ فكلُّ من أخرج من ذلك الوقت شيئاً في غير العبادة، وطلب السعادة؛ فكأنّه قد سرق الوقت من مولاه، وهتك الحرمة، وخرج عن رضاه، ونازعه في إرادته، وتعرّض بها لا طاقة له به من نعمته؛ فأبى إنسان، أو أيُّ جنانٍ يكون عارفاً بهالك رقاب العبيد...»^(٦١).

ويذكر ﷺ من أنّ أشهر السنّة هي عبارة عن مراحل، ومنازل للتكامل^(٦٢)، وبتعبيره:

«واعلم أنّ هذه الشهور التي يأتي ذكر عبادتها، وشرح خيراتها هي كالمراحل، والمنازل من حيث خرج الإنسان من بطن أمّه إلى أن يصل إلى انقضاء أمر الدنيا الرّائل، وفي كلّ منزلٍ منها مُد ارتضاه مولاه لتشريفه بتكليفه ذخائر، وكنوز، وجواهر بقدر ما تضمّنه النّقل، والشّرع الظّاهر...»^(٦٣).

ومما تقدّم يتّضح أنّ السيّد لا يعدّ كلّ أوقات الزّمان بمنزلةٍ واحدة، وكذا لا تكون مناسبةً لجميع الأفراد، قال في هذا السّياق:

«أقول: ولعلّ هذه الرّواية تختصّ بوقتٍ دون وقتٍ، وعلى حالٍ دون حالٍ، ولا إنسانٍ دون إنسان»^(٦٤).

ونبه ﷺ على أنّ علاقة الزّمان بأسرار العبادات أحياناً قد لا تكون واضحة؛ كوضع الأشهر رجب، وشعبان، وشهر رمضان على التّوالي متّصلة؛ فلاحظ وتأمّل^(٦٥).

«اعلم أنّنا قد ذكرنا في أوّل ليلة من رجب، وأوّل يوم منه طرفاً من حُرمة هذا

الشَّهر، والحماء الذي جعله الله ﷻ مما لا يسهل على العارف به الخروج عنه، وأنت إن كنتَ مُسلمًا تجد فرقًا بين الدُّخول في حرم الملوك، وجماهم لرعاياهم، وبين الخروج عن الحمى، والحرم الذي شرفهم به، وحفظهم بسببه، ووقاهم»^(٦٦).

وأنه ﷺ بيّن يوم الخامس عشر من رجب، وما فيه من أسرارٍ، وأفرد له عنوانًا، وكذا ليالي القدر (١٩، ٢١، ٢٣ من شهر رمضان المبارك)، وما فيها من أسرارٍ إلهية، «وجدتُ في الأخبار أنَّ كلَّ ليلةٍ من هذه الثلاث المذكورة فيها أسرارٌ لله ﷻ، وفوائد للعباد [العبادة] مذخورة»^(٦٧).

كما تحدّث عن عيد الفطر، قال:

«اعلم أنَّ نهار يوم العيد فتحُ بابٍ سعيد، وتجديد فضل جديدٍ لم يجزِ مثله منذ سنةٍ ماضيةٍ، ويمضي؛ فلا يعودُ مثله إلى نحوِ سنةٍ آتيةٍ، وما يخفى على ذوي الأبواب أنَّ فتح الأبواب التي تكون في الأوقات المتباعدات بزيادة السَّعادات لها حقُّ التَّعظيم، والاحترام، وحقُّ الاعتراف لصاحب الإنعام، ولزوم الآداب في سائر الأسباب مع مالك يوم الحساب»^(٦٨).

وفي نهاية المطاف؛ فإنَّ مسألة (أسرار العبادات من منظار السيّد ابن طاووس ﷺ) حريٌّ بها أن تُكتب بها الكتب، والأطاريح، والرَّسائل؛ فإنَّه موضوعٌ غُضِّ، وما هذه المقالة إلا خطوةٌ في هذا الطَّريق.

هوامش البحث

- (١) دكتور متخصص في التصوّف والعرفان الإسلاميّ، مؤلّف كتاب (عرفان السيّد ابن طاووس) باللغة الفارسيّة.
- (٢) راجع: الفتوحات المكيّة، ومجموعة رسائل ابن عربيّ، وفصوص الحكم، ومصباح الإنس، وإحياء العلوم، ومؤلّفات علاء الدولة (فارسيّة)، وشرح مصباح الشريعة للكيلانيّ (فارسيّ)، ومفتاح الحقيقة للسيّد حيدر الآمليّ، وتفسير المحيط، له أيضًا، وأسرار الصلاة للملكيّ التبريزيّ، والمراقبات له أيضًا، وسرّ الصلاة، وآداب الصلاة، والأربعون حديثًا، وشرح دعاء السّحر للسيّد الخمينيّ.
- (٣) لاحظ: فلاح السائل ونجاح المسائل: ١٢٥.
- (٤) إقبال الأعمال: ٣٠٨.
- (٥) فرج المهموم: ١١٦.
- (٦) لاحظ: كشف المحجّة لثمرة المهجة: ١٩٢-٢٠٠، ونهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٤٨، وأيضاً ما كتبه في فلاح السائل من أسرار الصلاة وغيرها.
- (٧) انظر: المصدر نفسه: ١٠٨.
- (٨) لاحظ: المصدر نفسه: ١١٠.
- (٩) راجع: كشف المحجّة لثمرة المهجة: ١٩٩-٢٠٠.
- (١٠) المصدر نفسه: ١٩٧.
- (١١) وهو في قضاء ما فات من الصلوات عن الأموات. انظر: الذريعة: ٧٣/١٦. د. عليّ الأعرجيّ.
- (١٢) انظر: فلاح السائل: ١٢٧.
- (١٣) المصدر نفسه: ١١٤.
- (١٤) راجع: كشف المحجّة لثمرة المهجة: ١٩٩-٢٠٠.
- (١٥) لا يخفى عليك من أنّ الكتاب المشار إليه هو (وصيّة السيّد ابن طاووس لولده محمّد).
- (١٦) راجع المصدر نفسه: ٢٠٠.
- (١٧) فلاح السائل ونجاح المسائل: ١٢٥.

- (١٨) مثلاً على ذلك انظر: أسرار الصلاة للملكي التبريزي، والمراقات له أيضاً، وسر الصلاة، وآداب الصلاة، والأربعون حديثاً، وشرح دعاء السحر، وشرح حديث جنود العقل للسيد الخميني.
- (١٩) أو مختار الدعوات وأسرار الصلاة، سمّاه المؤلف في ديباجته بـ«كلام الاسمين»، وهو السيد رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن طاووس الحلي المتوفى سنة ٦٦٤ هـ، ذكر في أوله بعد الخطبة أنّه عمد إلى تميم مصباح المهجد لجدّه الأمّي شيخ الطائفة الطوسي. انظر: الذريعة: ٤٩/٢.
- د. علي الأعرجي.
- (٢٠) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩١-٩٢.
- (٢١) إقبال الأعمال: ٢٠٠.
- (٢٢) ما موجود في النصّ الذي بين أيدينا (الغائبات)، ويبدو أن صاحب البحث أثر كلمة (الغايات). د. علي الأعرجي.
- (٢٣) المصدر نفسه: ٣٠٩.
- (٢٤) المصدر نفسه: ٣٠٨.
- (٢٥) المصدر نفسه: ٤.
- (٢٦) صحيفة نور: ٢١/٢٠٩.
- (٢٧) صحيفة الإمام: ٢٠/٣٥٥.
- (٢٨) لاحظ: تقريرات الفلسفة دروس السيد الخميني بقلم عبد الغني الأردبيلي: ١/١٨٣. (فارسي).
- (٢٩) صحيفة نور: ٢١/٣٩٦-٣٩٧.
- (٣٠) فتح الأبواب: ١٠٧.
- (٣١) الإقبال: ٦٥.
- (٣٢) الطرائف: ٢/٤٥١.
- (٣٣) مهج الدعوات: ٦٩.
- (٣٤) المصدر نفسه: ٢٥٨.
- (٣٥) الإقبال: ٦٥.
- (٣٦) سعد السعود: ١٣٠.
- (٣٧) فلاح السائل: ١٥١.
- (٣٨) المصدر نفسه.
- (٣٩) فتح الأبواب: ١٩٢.
- (٤٠) فلاح السائل: ١٧.

- (٤١) المصدر نفسه: ٦-٧.
(٤٢) المصدر نفسه: ٩.
(٤٣) المصدر نفسه.
(٤٤) المصدر نفسه: ١٥١.
(٤٥) المصدر نفسه.
(٤٦) . كشف المحجّة لثمرة المهجة: ٥٣.
(٤٧) ينظر: فلاح السائل.
(٤٨) كشف المحجّة لثمرة المهجة: ١٠٤.
(٤٩) فلاح السائل: ١٥١.
(٥٠) الإقبال: ١٤.
(٥١) المصدر نفسه: ١١٠.
(٥٢) كشف المحجّة لثمرة المهجة: ٦٨.
(٥٣) الإقبال: ٥٢٩.
(٥٤) المصدر نفسه: ٤.
(٥٥) المصدر نفسه: ٦٢٦.
(٥٦) لاحظ: رسالة نور على نور: ٥٨.
(٥٧) الإقبال: ٣٠٩.
(٥٨) المصدر نفسه.
(٥٩) المصدر نفسه: ٥٣٧.
(٦٠) المصدر نفسه: ٣٠٩.
(٦١) المصدر نفسه: ٣٧٧.
(٦٢) المصدر نفسه: ٥٢٩.
(٦٣) المصدر نفسه: ٣١٦.
(٦٤) المصدر نفسه: ٤٥١.
(٦٥) المصدر نفسه: ٩٨٢.
(٦٦) المصدر نفسه: ٦٢٦.
(٦٧) المصدر نفسه: ١٤.
(٦٨) المصدر نفسه: ٦٨٢.

المصادر والمراجع

١. الأردبيلي، عبد الغني، تقارير فلسفة (فارسي)، مؤسّسة تنظيم نشر آثار السيّد الخميني، طهران.
٢. الأملي، حسن زاده، رسالة نور على نور، انتشارات حكمت، قم.
٣. الخميني، روح الله، صحيفة نور (مجموعة آثار السيّد الخميني)، مؤسّسة تنظيم نشر آثار السيّد الخميني، طهران.
٤. السيّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، سعد السعود للنفوس منضود، دار الذخائر، قم.
٥. السيّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، فرج المهموم في معرفة نهج الحلال من علم النجوم، دار الذخائر، قم.
٦. السيّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، كشف المحجّة لثمرّة المهجّة، تحقيق: الشيخ محمّد حسّون، مؤسّسة بوستان كتاب، قم.
٧. السيّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، مطبعة الخيام، قم.
٨. السيّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، فلاح السائل، دفتر تبليغات إسلامي، الحوزة العلميّة، قم.
٩. السيّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات، منشورات مؤسّسة الأعلمي.
١٠. السيّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، إقبال الأعمال، الطبعة الجديدة، مكتب الأعلام الإسلامي، مركز النشر.
١١. السيّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، فتح الأبواب، مؤسّسة أهل البيت (عليه السلام)، قم.

